صورة ... وصورة ...

للأستاذ محمد محمد المدني

هذه كلمة من نوع ما كنت أكتب عن الأزهر من قبل ، جاشت النفس بها ثم احتبستها ، ولكن كلمة الأستاذ الزيات : « هل انبعث الأزهر » قد أثارت كامن الشوق القديم :

وذو الشوق القديم وإن تعزى مشوق حين يلقى الماشقينا !

الصورتان متقابلتان كأتم ما يكون من التقابل ، متنافرتان كأعنف ما يتصور من التنافر ، وهما مع ذلك مجتمعتان فى مكان واحد ، وبينهما صلة جوار قريب ورابطة قوية يبدو أنه لا سبيل إلى التخلص منها قبل زمن بعيد !

ليس الموضوع خيالاً يا عشاق الخيال ، وإنما هو الواقع الذى لم تفسده التصاوير ، والحقيقة المبرأة من المبالغة والتهويل !

الصورتان فى الأزهر ، والأزهر يحتفظ بهما معاً ، ويصانعهما معاً ، ويود لو بقى الناس غافلين عنهما ، منصرفين عن النظر إليهما

الصورة الأولى

صورة باسمة مشرقة متميزة الملامح والقسمات ، يشع منها نور الإيمان ، وتبدو على محياها سمات العقل والتفكير : لمن هذه الصورة ؟ ؟ إنها صورة أزهرى صحيح الفكر ، رشيد العقل ، واسع الأفق ، لا يضيق صدراً بما يأخذ به الناس من أسباب حياتهم ، وألوان ثقافتهم ، وطريقة تفكيرهم ما دام ذلك فى حدود العقل الصحيح والعلم الصحيح !

يشعر بأن الأزهر فى عهده الحديث مطالب بأن يفهم ما حوله فهماً صحيحاً ، لأن هذا الفهم ضرورى له ، وضرورى للدين الذى يحمل لواءه ، وضرورى للأمة التى تجعله منها فى مكان القيادة !

فهو ضرورى له ، لأنه إذا لم يفهم ما حوله فهماً صحيحاً ، ظل يخبط فى ظلمات ، ويضرب فى مجاهل ، فتكون النتيجة — ويا لهول ! — أن يفقد اعتباره أمام الأمة ، وأن يكره بعد حين قريب أو بعيد ، على التخلى عن مركزه التاريخى العظيم فيها !

وهو ضرورى للدين ، لأن الدين عدو الجهالة والجمود ، ولو كان الإسلام يرضى بالجهل أو يسكت عنه ، أو يحب الجمود أو يصبر عليه ، لما عاش هذا العمر المبارك الممتد إلى آخر الزمان إن شاء الله ، بل لما وصل إلينا اليوم إلا طعيماً جريحاً ، أو هرماً عملت الليالى والأيام فيه ، ولكنه وصل إلينا شاباً تجرى فى شرايينه دماء الحياة نقية متدفقة ، وصل إلينا قوياً غلاباً حرّ بحضارات وحضارات فلم يضق بشىء منها صدراً ولم يقف أمام واحدة منها حائراً متردداً ، ولا مأخوذاً مشدوهاً ؛ وصل إلينا سليما منتصراً ، قد تكسرت من حوله النصال ، وتحطمت السهام ؛ ذلك بأنه دين الفطرة والعقل والعلم والإصلاح !

وهذا الفهم الصحيح ضرورى للأمة نفسها ، لأن الأمة تنشد لأبنائها ثقافة قومية إسلامية خالصة ، ولا ترضى بأن تغنى فى غيرها ، أو تؤخذ بثقافة غريبة عنها عاجزة عن أن تمدها بوسائل الحياة التى تصلح لها ، قاصرة عن أن تثير فى نفسها شعور العزة والكرامة والتطلع إلى تاريخها ومفاخرها . تنشد الأمة لأبنائها هذه الثقافة وتتجه إلى الأزهر طالبة منه أن يمدها بها ، لأن الأزهر قد زامل تاريخها الذى به تعتز ، ولأنه هو الذى حفظ لها هذه الكنوز فى الدين والفقه واللغة والأدب ، ولأن الأزهر هو مدرسة الشعب العليا التى تجمع ابن الفلاح وابن الصانع وابن التاجر من سواد الأمة الذين يفهمون حاجاتها ، ويدركون ما تصلح به شئونها !

فإذا ما تخلف الأزهر عن تلبية هذه الرغبة ، ولم يقابل ثقة الأمة به ، وتعويلها عليه ، بالنشاط والعمل والتقدم نحو الكمال ، ولم ينتفع بهذا المركز الفريد الذى ميزه به تاريخه وعلومه وطبيعة رسالته — أذاق الأمة لباس الحرمان والفجيعة ، ودفعها إلى أعداء الإسلام كرهاً من حيث لا يحتسب

تقول الأمة الإسلامية للأزهر : إن سنى أغر آمالى أن أحمل عليك عبء تزويدى بما أحتاج إليه من قانون وتشريع ، وفقه وقضاء ، وأن أعمل برأيك الناضج فى جميع نواحى الحياة :

صورة ... وصورة ...

للأستاذ محمد محمد المدنى

هذه كلمة من نوع ما كنت أكتب عن الأزهر من قبل ، جاشت النفس بها ثم احتبستها ، ولكن كلمة الأستاذ الزيات : « هل انبعث الأزهر » قد أثارت كامن الشوق القديم :

وذو الشوق القديم وإن تعزى مشوق حين يلقى العاشقينا !

الصورتان متقابلتان كأتم ما يكون من التقابل ، متنافرتان كأعنف ما يتصور من التنافر ، وهما مع ذلك مجتمعتان فى مكان واحد ، وبينهما صلة جوار قريب ورابطة قوية يبدو أنه لا سبيل إلى التخلص منها قبل زمن بعيد !

ليس الموضوع خيالاً يا عشاق الخيال ، وإنما هو الواقع الذى لم تفسده التصاوير ، والحقيقة المبرأة من المبالغة والتهويل !

الصورتان فى الأزهر ، والأزهر يحتفظ بهما معاً ، ويصانعهما معاً ، ويود لو بقى الناس غافلين عنهما ، منصرفين عن النظر إليهما

الصورة الأولى

صورة باسمة مشرقة متميزة الملامح والقسمات ، يشع منها نور الإيمان ، وتبدو على محياها سمات العقل والتفكير : لمن هذه الصورة ؟ ؟ إنها صورة أزهرى صحيح الفكر ، رشيد العقل ، واسع الأفق ، لا يضيق صدراً بما يأخذ به الناس من أسباب حياتهم ، وألوان ثقافتهم ، وطريقة تفكيرهم ما دام ذلك فى حدود العقل الصحيح والعلم الصحيح !

يشعر بأن الأزهر فى عهده الحديث مطالب بأن يفهم ما حوله فهماً صحيحاً ، لأن هذا الفهم ضرورى له ، وضرورى للدين الذى يحمل لواءه ، وضرورى للأمة التى تجعله منها فى مكان القيادة !

فهو ضرورى له ، لأنه إذا لم يفهم ما حوله فهماً صحيحاً ، ظل يخبط فى ظلمات ، ويضرب فى مجاهل ، فتكون النتيجة — ويا لهول ! — أن يفقد اعتباره أمام الأمة ، وأن يكره بعد حين قريب أو بعيد ، على التخلى عن مركزه التاريخى العظيم فيها !

وهو ضرورى للدين ، لأن الدين عدو الجهالة والجمود ، ولو كان الإسلام يرضى بالجهل أو يسكت عنه ، أو يحب الجمود أو يصبر عليه ، لما عاش هذا العمر المبارك الممتد إلى آخر الزمان إن شاء الله ، بل لما وصل إلينا اليوم إلا طعيماً جريحاً ، أو هرماً عملت الليالى والأيام فيه ، ولكنه وصل إلينا شاباً تجرى فى شرايينه دماء الحياة نقية متدفقة ، وصل إلينا قوياً غلاباً حرّ بحضارات وحضارات فلم يضق بشىء منها صدراً ولم يقف أمام واحدة منها حائراً متردداً ، ولا مأخوذاً مشدوهاً ؛ وصل إلينا سليما منتصراً ، قد تكسرت من حوله النصال ، وتحطمت السهام ؛ ذلك بأنه دين الفطرة والعقل والعلم والإصلاح !

وهذا الفهم الصحيح ضرورى للأمة نفسها ، لأن الأمة تنشد لأبنائها ثقافة قومية إسلامية خالصة ، ولا ترضى بأن تغنى فى غيرها ، أو تؤخذ بثقافة غريبة عنها عاجزة عن أن تمدها بوسائل الحياة التى تصلح لها ، قاصرة عن أن تثير فى نفسها شعور العزة والكرامة والتطلع إلى تاريخها ومفاخرها . تنشد الأمة لأبنائها هذه الثقافة وتتجه إلى الأزهر طالبة منه أن يمدها بها ، لأن الأزهر قد زامل تاريخها الذى به تعتز ، ولأنه هو الذى حفظ لها هذه الكنوز فى الدين والفقه واللغة والأدب ، ولأن الأزهر هو مدرسة الشعب العليا التى تجمع ابن الفلاح وابن الصانع وابن التاجر من سواد الأمة الذين يفهمون حاجاتها ، ويدركون ما تصلح به شئونها !

فإذا ما تخلف الأزهر عن تلبية هذه الرغبة ، ولم يقابل ثقة الأمة به ، وتعويلها عليه ، بالنشاط والعمل والتقدم نحو الكمال ، ولم ينتفع بهذا المركز الفريد الذى ميزه به تاريخه وعلومه وطبيعة رسالته — أذاق الأمة لباس الحرمان والفجيعة ، ودفعها إلى أعداء الإسلام كرهاً من حيث لا يحتسب

تقول الأمة الإسلامية للأزهر : إن سنى أغر آمالى أن أحمل عليك عبء تزويدى بما أحتاج إليه من قانون وتشريع ، وفقه وقضاء ، وأن أعمل برأيك الناضج فى جميع نواحى الحياة :

فى الاجتماع ، فى الاقتصاد ، فى السياسة ، فى العلم ، فى الأدب ، ولكن ينبغى أن يكون منك تقدم وخطوات عملية فى جميع هذه النواحى ، تشعرنى بأنك عرفتها ودرستها عن خبرة وفهم وتحقيق ومقارنة ، ولا أكتفى منك بهذه الدراسات اللفظية الأثرية ، ولا بهذه الأفكار التقليدية التى لو كان أصحابها الآن بيننا لتخلوا عن كثير منها

لقد كان الفقيه المجتهد يغير رأيه فى المسألة الواحدة مراراً ، لاطلاعه على ما لم يكن قد اطلع عليه ، أو لانكشاف حالة لم تكن قد انكشفت له ، أو لمناقشة عالم أقنعته بما لم يكن مقتنعاً به ؛ وقد مر على هؤلاء الرجال المفكرين قرون وقرون ، وحدثت أحداث ، وجدّت نظم ، وتغيرت دول ، وانكشف للناس من أسرار الله فى الحياة ما لم يكن قد انكشف ، وظهرت مشكلات ومسائل وقضايا من طراز جديد ، فكيف يلتوى عنق الأمة إلى الماضى من غير نظر إلى الحاضر ، وكيف نقف والفلك المحرك دائر ؟ فى البلد شركات مالية تقوم على أساس من الاقتصاد خاص ، وفى البلد مصارف أصبحت جزءاً مقوّماً من نظام المال فى الدنيا ، وفى البلد ألوان من النظم والمعاملات لم تكن معروفة فيما مضى ، فهل درستم نظام هذه الشركات والمصارف ؟ وهل تفهمتم أصول هذه المعاملات والنظم ؟ وهل تبينتم من ذلك كله ما يتفق مع التشريع الصحيح وما لا يتفق ؟

فى البلد مشكلات اجتماعية ، وعلل تحتاج إلى الإصلاح ، فهل فكرتم فى أن تجدوا حلاً لهذه المشكلات ودواء لهذه العلل ، ثم عرضتم ذلك عرضاً منظماً جاداً حازماً على ولاة الأمور ، وأقنعتموهم بالصلاح فيما تعرضون ؟

إن أحداً من الناس لا يستطيع أن يقول : إن التشريع الإسلامى ليس كفيلاً بإسعاد المجتمع ، وإنهاض الأمة ؛ ولو قال ذلك أحد من الناس لكان مخطئاً فى الخطأ ، جاهلاً بالحقائق ، أو عدواً للاسلام جاحداً بفضله

ولكن قبل أن تنادوا بذلك ، تحللوا أنتم أولاً من هذه القيود التى أثقلتكم . تحللوا من هذه الدراسات اللفظية الأثرية التى شغلتكم . برئوا أنفسكم وكرموا وجه العلم من أن تخلعوا على كل رأى قديم ، مهما كان أمره ، هذه القدسية التى لا يعرفها الإسلام إلا لله ورسوله !

إن هؤلاء الذين سبقوكم قد قاموا بما يجب عليهم ، وأدوا إلى الله أمانتهم ، ولبوا حاجات عصورهم ، وكانوا يصدرون فيما يرون أو يقولون عن نظر وتأمل واقتناع ، فمن البر بهم أن تسيروا على سنتهم ، وأن تهتدوا بهديهم : فتلبوا حاجات عصركم — فى حدود الشريعة — كما لبوا حاجات عصرهم ، وتصدروا عن فهم ووزن صحيح لحاجات أمتكم ، كما أصدروا عن مثل ذلك

ذلك هو النداء الروحى الذى يشعر الأزهرى الناضج بأن الأمة تنادى به الأزهر ؛ وذلك هو الصوت المدوى الذى ينادى به الدين أبناء الدين ؛ وذلك هو الروح الكريم الذى يوحى به الإخلاص للأزهر ورسالة الأزهر ؟

* * *

هذه إحدى الصورتين المتقابلتين فى الأزهر !

الصورة الثانية

أما الصورة الثانية فيالله ! كيف أصورها ؟ إنها صورة مظلمة قاتمة تنبو عنها العين ، وينقبض لمرآها الصدر : شيخ يعيش فى عصر النور والعلم ويأبى إلا أن يكون بروحه وعقله فى عصر الجهالة والتعصب والغموض والإبهام

تقول له : قال الله ، فيقول لك : قال فلان فى شرح كذا أو حاشية كذا . وتقول له : تأمل هداية الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، واعتبر بتطبيقه لآيات الله ، وفهمه وفقهه فى أحكام التشريع . فيقول لك : هذه مهمة المجتهدين وقد انقضى عهدهم ، وأصبح الزمان لا يجود بمثلهم . أما أنا فمقلد وسأبقى مقلداً ، لأن فلاناً يقول فى منظومته :

« وواجب تقليد حبر منهمُ ... »

وهكذا يجعل التقليد واجباً له مرتبة العقيدة !

وتقول له : أنظر ماذا كان يفعل الأصحاب الأولون ، وكيف كانوا يفهمون العقائد والأحكام كما نزلت فى كتاب الله ، لم تشبها الشوائب ، ولم تفسدها المذاهب الباطلة ، ولم تؤثر فيها النحل الغريبة ؛ فيخالطه الشك فى أمرك ، ويجرى لسانه بألفاظ